مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٣٤/٢٠١٣ هـ.ق، العدد ٢٠ (٢) ٣٧- ٤٧

نظرية الاستطاعة وتطبيقاتها عند الإمام علي الهادي (ع)
(رؤية في نظرية الجبر و التفويض)

أ.م.د عبدالحسين العمري[١]

تاريخ الوصول: ١٤٣٤/٨/٢٧ تاريخ القبول: ١٤٣٤/٩/٢٠

يتناول البحث موضوعة (نظرية الاستطاعة وتطبيقاتها في مقولات الامام علي الهادي عليه السلام) التي تعد ــ في نظرنا ــ الأساس للنظرية التي عرفت عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهي (نظرية الجبر والتفويض)، وعليه فإننا سنحاول في هذا البحث جلاء الفكرة في هذه النظرية التي لم يتطرق إليها أحد من الباحثين والمفكرين ــ حسب اطلاعنا المتواضع ــ، وما مفهوم الاستطاعة في اللغة والاصطلاح، وأساسياتها القرآنية بشيء من الإيجاز، وبما يسمح به فضاء البحث المختصر، ريثما يتوفر الوقت اللازم للبحث في هذه النظرية واستجلاء أولياتها بالكامل، قرآنياً وحديثياً، بالإضافة إلى ما ورد فيها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الكلمات الرئيسة: نظرية، الاستطاعة، الجبر، التفويض، التطبيقات، الامام علي الهادي (ع)

١. جامعة ذي قار في العراق، كلية الآداب. dr.alumary2012@yahoo.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

مقدمة

تمثل المنظومة الفكرية في السيرة النبوية الشريفة وحياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) الركيزة الأولى في بناء الفكر الإسلامي الحقيقي الذي يمتح من النبع القرآني الثر، بالإضافة إلى تمثله تمثلاً صحيحاً وقراءته قراءة مستنيرة ومنيرة في الوقت ذاته، الغاية من ذلك صناعة فكر إسلامي واعٍ وأصيل ينتمي إلى ذاته المبدعة التي أوجدها القرآن الكريم من خلال إعادة إنتاج المعنى بما يتلاءم وروح العصر المتجدد والمتطور عبر السنين المتطاولة .

والإمام علي الهادي (ع) هو جزء مهم من هذه المنظومة الفكرية الكونية، الذي بالرغم من كل المضايقات والتهميش والإقصاء الذي عانى منه هو وآباؤه المطهرون (عليهم السلام)، لم يبخل على الإسلام والمسلمين بعطائه الفكري والمعرفي، ولعل بحثنا الذي نتناول فيه نظرية الاستطاعة عنده هو واحد من نسيج هذا العطاء المتألق في رحاب المعرفة والفكر الإسلامي الأصيل، وهو يمثل قنديلاً معرفياً كبيراً في المسيرة العلمية الإسلامية الحقة .

وقد تناولت البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة، عرضت في المقدمة لقيمة البحث، وفي المبحث الأول عرضت لمفهوم الاستطاعة قرآنياً، ونبوياً، ولدى أئمة أهل البيت (ع)، وكذلك لغوياً في تمهيد نظري، كما تناولت في المبحث الأول أوليات النظرية عند أئمة أهل البيت (ع) وتناولت في المبحث الثاني مفهوم نظرية الاستطاعة عند الإمام علي الهادي (ع)، ثم الخاتمة التي عرضت فيها لنتائج البحث، وبعد كل ذلك جاء مسرد المصادر والمراجع التي تخص البحث ...والحمد لله أولاً وآخراً .

تمهيد نظري

لعل الفكرة تبدو جديدة نوعاً ما في البحث، ولكنها موجودة في تراث الامام علي الهادي (ع) المروي عنه، وهي كذلك موجودة في النص القرآني، أي أن القرآن الكريم تناولها في آياته، كما أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وائمة أهل البيت (ع) قد أشاروا إليها، كلٌّ حسب المقتضى الوارد لديه أو السؤال الذي يوجه له، أو المطلب الذي يعطي فيه حكماً، وعليه فإنني سأستعرض ذلك بإيجاز ـــ إن شاء الله ـــ حفاظاً على طاقة البحث، ووصولاً إلى الفكرة الرئيسة للبحث التي نريد تناولها لدى الإمام (ع) شخصياً، أملاً في أن يكون هذا البحث مكتملاً في هذا الباب يوماً ما.

من حيث التناول القرآني، وردت آيات عدة تشير إلى فكرة الاستطاعة بالنص، مثلاً قوله تعالى (لاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ....) سورة البقرة الآية (٢١٧). سورة البقرة الآية (٢١٧). وهي تأخذ معنى الفرضية بدليل قوله تعالى (إن استطاعوا)، وعن الحج بوصفه فريضة (... وِلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...) سورة آل عمران الآية (٩٧). وهنا تذهب إلى معنى التخيير المشروط، وقوله تعالى عن ذي القرنين (ع) حينما بنى السد المذكور في القرآن الكريم (فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً) سورة الكهف الآية (٩٧). والفكرة غير قابلة للتنفيذ ذاتياً، أو قوله تعالى (وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ) سورة يس الآية (٦٧). وهنا تفيد معنى السلب، وقوله تعالى (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ) سورة الذاريات الآية (٤٥).كذلك هنا بمعنى السلب، وبصيغة الفعل المضارع وردت هذه اللفظة في قوله تعالى (...إِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ....) سورة البقرة الآية (٢٨٢). وهنا تفيد معنى افتقاد القدرة الذاتية، وقوله تعالى (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ....) سورة المائدة (١١٢). وهنا تفيد معنى الاستفهام في غير محله، وبصيغة المخاطب وردت في قوله تعالى (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً) سورة الكهف الآية (٤١). وهنا تفيد معنى سلب القدرة، وقوله تعالى حكاية عن لسان الخضر(ع) حينما صحبه نبي الله موسى (ع) بقوله (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) سورة الكهف الآية (٦٧). كذلك تفيد عدم القدرة الذاتية بهذا الخصوص، وقوله تعالى في القصة نفسها (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) سورة الكهف الآية (٧٢). وهي تأكيد على المعنى ذاته، وأيضاً قوله تعالى (قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً) سورة الكهف الآية (٧٥). وهي كذلك لتأكيد المعنى ذاته تخصيصاً.

وفي ذلك فرقٌ غيرُ قليلٍ بين الاستطاعة بوصفها مفهوماً يفيد معنى القدرة الذاتية وبين الطاعة بوصفها مفهوماً يفيد معنى الالتزام بالأوامر، فالطاعة بحد ذاتها تفيد معنى الالتزام كما ورد في معجمات اللغة، فقد ورد في أساس البلاغة للزمخشري أن أطاع يفيد هذا المعنى (تقول العرب : اللهم لا تُطيعنّ بي حاسداً أي لا تفعل بي ما يُحب) أساس البلاغة مادة (طوع). و (طوع ــ أقرّ طائعاً، وفعل ذلك طوعاً وطواعية، وهو مطواع وطيّع، وطاوعتُه على كذا) المصدر نفسه. و(من المجاز : أنا طوعُ يدك، وفرسٌ طيّع العنان) المصدر نفسه.

بينما نجد في المعجم أن (استطاع) يختلف معناها ؛ إذ ورد في المعجم أنها تفيد معنى آخر، كما في قوله (وفيه استطاعة ذلك، وتطاوع لهذا الأمر، وتطوّع له : تكلف استطاعته حتى يستطيعه) المصدر نفسه. مما يعني أن الفكرة في (الميزان الصرفي (أن) كل زيادة في المبنى تصحبها زيادة في المعنى) محنة المثقف ــ دراسة نصوص عبدالله بن المقفع أسلوبياً ٥٧. أي أن الطاعة غير الاستطاعة، بل هما على طرفي نقيض في المعنى، فبينما تفيد الطاعة معنى الانصياع والانقياد، تفيد الاستطاعة معنى آخر هو القدرة الذاتية وإثبات الذات .

ولعل المعنى المعجمي كما فهمنا من الآيات القرآنية السابقة والآيات الآتية (الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) سورة آل عمران الآية (١٦٨). (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً) سورة النساء الآية (٨٠). (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) سورة الزخرف الآية (٥٤). هو قريب من المعنى الاصطلاحي للفظة (الاستطاعة) الذي يعني (القدرة التامة التي يجب عندها صدور الفعل) التعريفات ٣٥. فالمعنى المعجمي هو ضد العجز وهو قريب جداً من المعنى الاصطلاحي، أي أن (الاستطاعة والقدرة والوسع والطاقة متقاربة في المعنى واللغة) المصدر نفسه ٣٥.

ومما تبين نجد أن الاستطاعة لها صلة عميقة بالقدرة والطاقة والامكان، وعلى هذا الأساس فإن الفرق بين الاستطاعة وغيرها من المصطلحات التي ذكرناها يكمن في السياق الذي يمكن أن تأتي اللفظة أو المصطلح، من جهة، وفي التناغم بالمعنى الذي يكتسبه المصطلح من خلال السياق الذي يرد فيه، لكن يمكن القول إن القدرة والطاقة والامكان هي أعم من الاستطاعة، والاستطاعة أخص وألصق بالإنسان منها بغيره من المخلوقات، على أساس أن الخطاب القرآني الذي نفهمه من الآيات السابقة هو انحيازها في المعنى لمفهوم الاستطاعة لصالح البشر ؛ لأن كل مفردات الاستطاعة ذهبت باتجاه المنحى الإنساني، بينما ما

تعنيه المصطلحات الأخرى التي ذكرناها وتحدثنا عن علاقتها بمفهوم الاستطاعة، تشمل حتى المخلوقات الأخرى في أدائها للعمل أو التكليف، فلا يقال (الجمل مطيق لحمل كذا ولا تقول مستطيعاً، فهذا هو الفرق بينهما) الفروق اللغوية ٨٩.

إذن كما أن هناك تقارب عميق بين هذه المفاهيم، هناك فرق طفيف بينها، وهذا التقارب والفرق هو الذي يحدد قيمة الواجب الفردي من حيث أداء أي عمل من قبل الفرد أو الامتناع عنه، مع الأخذ بنظر الاعتبار قدرة الفرد على أداء عمل دون غيره، أو استطاعته على عمل دون سواه، وهذه الاستطاعة هي أصلاً، حسب فهمنا، تتناسب وقدرة الفرد ـــ الانسان على الأداء، حتى يكون في أركان الدين وواجباته المعتبرة التي تمثل في شكلها رمزية الانتماء ناهيك عن مضامينها، بوصفها برنامجاً دنيوياً يمثل ضوابط تحكم السلوك الفردي دون المساس بالحرية التي تنسجم والمنطق العقلي، إذن هي تدخل في باب التيسير السلوكي الذي يعطي للفرد المسلم مساحة واسعة من الحركة، وبطبيعة الحال فإن منهج التكليف الديني لم يغفل ذلك، بل وضعه موضع الاعتبار، ناظراً إلى أهمية سلامة الأدوات وصحة الأسباب التي تجعل تنفيذ العمل أو الواجب ميسراً دون الإغفال لمقتضيات العمل نفسه.

ونحن لا نريد الحديث عن الاستطاعة بوصفها مفهوماً فقهياً بحتاً أو سواه مما ينتمي إلى المباحث الفقهية والتشريعية الصرفة، فهذا له مجال آخر.

بل نريد الحديث عن مفهوم الاستطاعة عند الامام علي الهادي (ع) بوصفه مفهوماً كلامياً فلسفياً يدخل في باب النظر إلى العلاقة بين الخالق عز وجل وبين العبد من جهة الاعتقاد فقط دون الدخول في مقتنيات الفكر العقائدي العميقة ؛ لأن البحث في حجمه لا يحتمل ذلك.

أوليات النظرية

تمثل نظرية الجبر والتفويض لدى المسلمين بشكل عام ، وعلمائهم بشكل خاص، من أعقد المشكلات التي عانى فيها المفكرون والفلاسفة كثيراً حتى وصلوا فيها إلى حيص بيص، ودخلوا في متاهاتها، وكل له نظريته في ذلك ورأيه الخاص به[1] باستثناء أئمة أهل البيت عليهم الذين كانوا على منهج خاص بهم يروونه عبر سلسلة من الأئمة وصولاً إلى النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، ومن خلال فهمهم العميق لكتاب الله تبارك وتعالى، ولذلك كانت هذه النظرية قد شغلت حيزاً كبيراً لدى الفلاسفة والمتكلمين، وكان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يدلون بأقوالهم النابعة من القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة، بناء على المصلحة العامة ومتطلبات الحفاظ على الدين الحنيف وبيان أحكامه وأصوله، وبناء على فهم عميق لتأصيل الأصول والعقائد يتمثل في (إعطاء مساحة للعقل البشري المترقي أن ينهل في كل زمان من مخزون النص) مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني ٨٠. فكانت أقوال أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير القرآن الكريم تعتمد منهجية متعددة تبعاً لمقتضى الحال المطابق للفهم الحقيقي للنص ينظر: المصدر نفسه ٨٣ وما بعدها. وبعيداً عن الرأي المختزل الذي لا ينسجم والمفهوم القرآني الواقعي لمسيرة الكون وتجلياته المعرفية في الذات الإنسانية الواعية الطامحة إلى الترقي المعرفي الواعي .

الإمام علي الهادي (ع) ونظرية الاستطاعة

لا يبتعد الإمام علي الهادي (ع) عن منهج آبائه (عليهم السلام) في بيان المنهجية الحقيقية لفهم الدين الحنيف فهماً عقلياً خالصاً؛ لأن (لله على الناس حجتين ظاهرة وباطنة، فأما الظاهرة، فالرسل والأنبياء والأئمة (عليهم السلام)، وأما الباطنة فالعقول) بحار الأنوار ١/ ١٣٧. حيث نرى أن الإمام (ع) حينما يسأل عن قضية الجبر والتفويض التي

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

شغلت بال المفكرين وأئمة المذاهب والمتكلمين والفلاسفة المسلمين، يكون جوابه مفصلاً بناء على نظرية الاستطاعة التي نحن بصدد البحث فيها وبيان رأي الإمام (ع) في ذلك.

يبدأ الأئمة (عليهم السلام) التأصيل لأفكارهم من القرآن الكريم ثم التدرج إلى الحديث النبوي الشريف ثم إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ثم كل إمام يأخذ عن سابقه وبحسب الظرف والزمان والمكان ورؤية العصر الذي يعيشه، وبذلك هم يمثلون النموذج المتطور في التفكير؛ لأنهم عدل القرآن والمؤهلون لاستجلاء معانيه ودلالاته وكوامنه من المعاني والأفكار والنظريات بعيداً عن الاحتكام لظاهر النص وتعويمه، أو القول بآرائهم، ولذلك كانت أجوبة الإمام علي الهادي (ع) امتداداً حقيقياً لجهد من سبقه من آبائه (عليهم السلام)، فهو يقول في رسالته في الرد على أهل الجبر والتفويض وإثبات العدل والمنزلة بين المنزلتين، حينما سأله أصحابه عن ذلك وبيان الفكرة الصحيحة ومقومات هذه الفكرة وطبيعتها، وأن يرد على الجبرية والمفوضة الذين كانوا ينشطون قبل وأثناء حياة الإمام (ع)، يقول الإمام (ع) :

(اعلموا ـــ رحمكم الله ـــ أنا نظرنا في الآثار وكثرة الأخبار فوجدناها عند جميع من ينتحل الإسلام ممن يعقل عن الله جل وعز لا تخلو من معنيين: إما حق فيتبع وإما باطل فيجتنب) تحف العقول ٣٣٧.

يحدد الإمام بداية المسار الفكري العام الذي يبرر المنهجية المعتمدة ؛ إذ يقول إننا بشكل عام وكما متعارف لدى المسلمين من العقلاء أن هناك اتجاهين حق وباطل، ثم يحدد نقطة الانطلاق الحقيقي لكل أهل الفرق أن القرآن الكريم هو حق لا ريب ولا شك فيه من خلال استشهاده بقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) (لا تجتمع أمتي على ضلالة)[1] من حيث الكلية الجامعة التي لا توجب الفرقة، أما إذا كان هناك ما يوجب الفرقة بينهم أو عصيانهم لأمر إلهي أو نبوي فهذا يعني أن لا اجتماع بينهم، وكما قال الإمام (ع) في هذا الصدد:

(فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمة كلها حق، هذا إذا لم يخالف بعضها بعضا، والقرآن حق لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه..) المصدر نفسه ٣٣٧.

والكلام هنا بشرطه، وهو عدم مخالفة بعضهم لبعض ؛ لأن إجماع الأمة هو علامة فارقة في مصداقية المتبوع وعقلية التابع الناضجة ؛ إذ أن القرآن حق قد اتفقت عليه الفرق جميعها بوصفه منهجاً كاملاً لحياة البشرية في كل مكان وزمان، ومصاديقه تكمن في (التوحيد بين المنهجية المعرفية للعلم والإيمان (و) فيه رد اعتبار لمقولة تكامل الغيب والشهادة) إسلامية المعرفة عند السيد محمد باقر الصدر ١٢٩. ثم ينتقل الإمام (ع) في بيان الصورة إذ يذكر حديث الثقلين الذي يجعل القرآن الكريم وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) في كفتين متعادلتين، ليس احتجاجاً على منكري حق الأئمة المعصومين فيما يتعلق بالخلافة والحكم، بل على أساس اتفاق كل رواة الحديث على صدقية الحديث ومصداقيته وحجيته العلمية الروائية لدى أهل العلم فضلاً عن العامة؛ إذ أن الإمام (ع) أراد من وراء هذا الطرح الفكري العقائدي تثبيت حقيقة مفادها أن فهم القرآن مخصوص بنوعية من البشر وليس لكل من اكتسب طرفاً من العلم، فذلك لا يؤهله لفهم المتشابه والمحكم والناسخ والمنسوخ وغيره من آيات القرآن، وفي ذلك بيان جلي في أن الحاكمية الفكرية لأهل البيت (عليهم السلام) ؛ لأنهم أكثر الناس فهماً للقرآن الكريم لنزوله في بيوتهم وكونهم تلاميذه، وعن ذلك يعبر الإمام (ع) بقوله :

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

(...ثم وردت حقائق الأخبار من رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الصادقين (عليهم السلام) ونقلها قوم ثقات معروفون فصار الاقتداء بهذه الأخبار فرضاً واجباً على كل مؤمن ومؤمنة لا يتعداه إلا أهل العناد، وذلك أن أقاويل آل رسول الله (صلى الله عليه وآله) متصلة بقول الله ....) تحف العقول ٣٣٨.

تتحدد المنهجية لدى أهل البيت في هذا الاتجاه الذي يؤهلهم في أن يتبوؤوا هذه المترلة العلمية العالية التي تجعلهم حكماء وحاكمين على الناس باعتبار هذا الأمر فرضاً واجباً على كل مؤمن ومؤمنة لا يتخطاه إلا أهل العناد ــ حسب تعبير الإمام (ع) ــ، وكما يشير إلى حجية المترلة يشير إلى الدليل وهو اتصال كلامهم بكلام البارئ جل وعز، كل ذلك وسواه يمثل طريقاً اتخذه الإمام علي الهادي (ع) لبلوغ المطلوب في بيان عدم حجية آراء أهل الجبر والتفويض؛ إذ ينتقل إلى تفصيل ذلك ما أسميناه (نظرية الاستطاعة) عنده، وهو يبين هذا الذي قلناه واضحاً بقوله:

(.. وإنما قدمنا هذا الشرح والبيان دليلاً على ما أردناه وقوة لما نحن مبينوه من أمر الجبر والتفويض والمترلة بين المترلتين وبالله العون والقوة وعليه نتوكل في جميع أمورنا...) تحف العقول ٣٣٩.

ثم يدخل مباشرة إلى قاعدة النظرية التي انطلق منها، وهو قول الإمام الصادق (ع) ؛ إذ يقول :

(...فإنا نبدأ من قول الإمام الصادق (ع) :"لا جبر ولا تفويض ولكن مترلة بين المترلتين، وهي صحة الخلقة وتخلية السرب والمهلة في الوقت والزاد مثل الراحلة والسبب المهيج للفعل على فعله...) المصدر نفسه والصفحة .

وهكذا يبدأ الإمام جوابه عن مسألة أصحابه الذين سألوه الرد على القائلين بالجبر والتفويض ؛ إذ بدأ يفصل الأشياء بناء على القاعدة العقدية التي ذكرها عن جده الإمام الصادق (ع)، يقول في ذلك الإمام الهادي (ع) :

(...ولما التمسنا تحقيق ما قاله الإمام الصادق (ع) من المترلة بين المترلتين وإنكاره الجبر والتفويض، وجدنا الكتاب قد شهد وصدق مقالته في هذا وخبر عنه أيضا موافق لهذا...) المصدر نفسه والصفحة.

إن إطلاقية الكلام دون تمحيص تمثل فخاً ينصبه البحث لصاحبه، وعليه فإن الإمام الهادي (ع) لم يدع مجالاً للتقول المشكك في المنهجية النبوية المرتكزة على القرآن الكريم، فنراه يعيد قول الإمام الصادق (ع) إلى مُنشئه الأول، فيعبر عن ذلك بالتمحيص الذي يبرز النتائج على دقتها، حتى يقول بأنه وجد ما قاله الإمام الصادق (ع) يقوم على أساس قرآني قوي، وقد نطق بذلك قبل الإمام الصادق (ع) مما يعطي فهماً قائماً على استنتاج سليم، هو أن هؤلاء الأشخاص قد تتلمذوا على القرآن ونهلوا من ينبوعه الثر وتشربوا معانيه فأصبح جزءً من تكوينهم الروحي والعقلي، فكانوا يفهمونه بطريقة تختلف عن سواهم ممن وقف على ساحل النص القرآني فكان صيدهم منه الزعانف، وكان أئمة أهل البيت يذهبون إلى أعماق النص فيأتون بالجواهر والدرر الفكرية التي تنير الطريق لكل من يحيد عن الجادة السوية .

ثم يعزز الإمام الهادي (ع) رسالته في هذا الباب بقوله:

(...إن الإمام الصادق (ع) سئل هل أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال الصادق (ع): هو أعدل من ذلك، فقيل له : هل فوض إليهم ؟ فقال (ع) هو أعز وأقهر لهم من ذلك) تحف العقول ٣٣٩.

بين العدل الإلهي بوصفه مفهوماً عقائدياً وبين العزة والقهر الإلهي للعباد بوصفه مفهوماً ينم عن حاكمية مطلقة وقف الإمام الصادق (ع) مشيراً إلى تلك المترلة الوسطى

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

بين المترلتين، ثم جاء الإمام الهادي (ع) ليعطيها مفهومها النظري المستمد من الفكر القرآني بلفظتها القرآنية التي ينضوي تحتها المعنى برفق، فيقول في مفهوم الجبر قائلاً :

(فأما الجبر الذي يلزم من دان به الخطأ فهو قول من زعم أن الله عز وجل أجبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها، ومن قال بهذا القول فقد ظلم الله في حكمه، وكذّبه وردّ عليه قوله (ولا يظلم ربك أحدا) سورة الكهف الآية (٤٩). وقوله (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) سورة الحج الآية١٠. وقوله (إن الله لا يظلم شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) سورة يونس الآية (٤٥)) تحف العقول ٣٤٠ .

إن الوعي بماهية الجبر وطبيعته من حيث الظلم الذي يقع على الفرد أو الخالق عز وجل، يحتاج قراءة دقيقة لمقتضيات الآيات القرآنية وبيان مقتنياتها الفكرية والمضمونية والسياق الذي تأتي فيه، وعلى هذا فإن الإمام علي الهادي (ع) جاء بأمثلة تطبيقية لبيان المعنى والدلالات التي يمكن إحرازها من معرفة ما يراد بالجبر ومتطلباته، فيقول الإمام الهادي (ع) :

(...فمن زعم أنه مجبر على المعاصي فقد أحال بذنبه على الله وقد ظلمه في عقوبته... ومَثَل ذلك مثل رجل ملك عبداً مملوكاً لا يملك نفسه ولا يملك عرضاً من عرض الدنيا ويعلم مولاه ذلك منه فأمره على علم منه بالمصير إلى السوق لحاجة يأتيه بها.....) المصدر نفسه ٣٤٠.

وعلى هذا الأساس يبين الإمام طبيعة الجبر ومتطلباته وأقيسته ـــ إن صح التعبيرـــ وفي هذا الباب يقول الإمام الرضا (ع) لأحد أصحابه حينما سأله عن تفويض الله عز وجل الأمر للعباد، فقال له الرضا (ع) (الله أعز من ذلك، ثم قال الرضا (ع): قال الله عز وجل: يابن آدم، أنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، عملت المعاصي بقوتك التي جعلتها فيك التوحيد ٣٦٢ – ٣٦. وهو ذات المعنى الذي يذكره الإمام الهادي (ع)، حينما يقول عن ذلك :

(... بل نقول : إن الله جل وعز يجازي العباد على أفعالهم بالاستطاعة التي ملكهم إياها، فأمرهم ونهاهم وبذلك نطق كتابه (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) سورة الأنعام الآية (١٦١) . وقال جل ذكره (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ) سورة آل عمران الآية (٣٠). وقال (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) سورة غافر الآية (١٧) . فهذه آيات محكمات تنفي الجبر ومن دان به، ومثلها في القرآن كثير...) تحف العقول ٣٤١.

من هنا يتبين لنا أن منهج أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هو الاعتماد على فهم النص القرآني بوصفه أساساً لكل الأفكار العميقة التي تحتاج إلى استدلال عميق، فقد نص الامام الهادي (ع) على الاستطاعة بالاسم، كونها هي الأساس في ثواب العبد وحسابه عن كل فعل قام به، وفي الاتجاه ذاته من حيث مفهوم التفويض الذي هو رأي بعض المسلمين من غير أئمة أهل البيت، يقول الإمام علي الهادي (ع) عن مفهوم التفويض معتمداً على أصل النظرية التي طرحها الإمام الصادق (ع)، فيقول:

(وأما التفويض الذي أبطله الإمام الصادق (ع)، وأخطأ من دان به وتقلده، فهو قول القائل: إن الله جل ذكره فوّض إلى العباد اختياراً أمره ونهيه وأهملهم، وفي هذا كلام دقيق لمن يذهب إلى تحريره ودقته، وإلى هذا ذهبت الأئمة المهتدية من عترة الرسول (صلى الله عليه وآله) فإنهم قالوا : لو فوض إليهم على جهة الإهمال لكان لازماً له

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

رضى ما اختاروه واستوجبوا منه الثواب و لم يكن عليهم فيما جنوه العقاب إذا كان الإهمال واقعاً) تحف العقول ٣٤١ .

وهنا من خلال تعريفه للتفويض كونه تفويض العباد أمره ونهيه واهماله لهم من جهة أخرى، إنما يعني قراءة دقيقة جداً وعميقة غاية في العمق لا يمكن أن يستنبطها من وقف على ساحل النص القرآني ـــ كما أسلفنا ـــ بل يستنبطها من غاص في أعماق النص القرآني وجاء بالمعنى المراد من خلال الفهم الحقيقي المناسب للنص، ويضيف الإمام (ع) موضحاً الفكرة بجلاء أكثر:

(...وتنصرف هذه المقالة على معنيين : إما أن يكون العباد تظاهروا عليه (الله) فألزموه قبول اختيارهم بآرائهم ضرورة ـــ كره ذلك أم أحب ـــ فقد لزمه الوهن، أو يكون جل وعز عجز عن تعبدهم بالأمر والنهي على ارادته ـــ كرهوا أو أحبوا ـــ ففوض أمره ونهيه إليهم وأجراهما على محبتهم إذ عجز عن تعبدهم، بإرادته فجعل الاختيار إليهم في الكفر والإيمان...) المصدر نفسه ٣٤٢ .

وهذا مما لا يمكن حصوله ؛ لأن عجز الله تبارك وتعالى يعني أنه ضعيف وغير قادر على العباد من جهة، وأنه عاجز من جهة أخرى، وكلا الأمرين لا يمكن حصوله باعتبار أن الله قادر وقوي وغير عاجز عقلاً ويجب الاعتقاد بذلك ؛ لأن إلهاً بمواصفات العجز والضعف لا يصح أن يكون إلهاً أبداً، ثم جاء الإمام الهادي (ع) بتطبيق في قوله :

(...ومثل ذلك مثل رجل ملك عبداً ابتاعه ليخدمه ويعرف له فضل ولايته ويقف عند امره ونهيه...وبعثه في بعض حوائجه وسمى له الحاجة فخالف على مولاه وقصد لإرادة نفسه واتبع هواه ...فقال له: لِمَ أتيتني بخلاف ما أمرتك؟ فقال العبد: اتكلت على تفويضك الأمر إليّ فاتبعت هواي وإرادتي ؛ لأن المفوض إليه غير محظور عليه فاستحال التفويض) المصدر نفسه ٣٤٢.

ثم ينتقل لبيان الوجه الآخر لهذه المسألة، فيقول :

(...وفي إثبات العجز نفي القدرة والتأله وإبطال الأمر والنهي والثواب والعقاب ومخالفة الكتاب إذ يقول: (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) سورة الزمر الآية (٧). وقوله عز وجل (اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) سورة آل عمران الآية (١٠٢). وقوله: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) سورة الذاريات الآيتان (٥٦و٥٧)، وقوله:(اعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً) سورة النساء الآية (٣٦) . وقوله (أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ) سورة الأنفال الآية (٢٠).

من هنا يتبين أن العجز يعني نفي القدرة عن البارئ عز وجل وهذا ما لا يمكن وجوده أو انطباقه على الخالق العظيم جل وعلا، بل حتى مفهوم الألوهية ينتفي في هذه الحال، ويصبح مفهوم الثواب والعقاب باطلاً من جهة البارئ تعالى، هذا من جهة العجز، ومن جهة التفويض يقول الإمام (ع):

(...فمن زعم أن الله تعالى فوض أمره ونهيه إلى عباده فقد أثبت عليه العجز وأوجب عليه قبول كل ما عملوا من خير أو شر وأبطل أمر الله ونهيه ووعده ووعيده، لعلة ما زعم أن الله فوضها إليه لأن المفوض إليه بعمل بمشيئته، فإن شاء الكفر أو الإيمان كان غير مردود عليه ولا محظور، فمن دان بالتفويض على هذا المعنى فقد أبطل جميع ما ذكرنا من وعده ووعيده وأمره ونهيه وهو من أهل هذه الآية (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) سورة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

البقرة الآية (٨٥). تعالى عما يدين به أهل التفويض علواً كبيراً) تحف العقول ٣٤٣.

وعلى هذا الأساس، فند الإمام الهادي (ع) رؤية القائلين بالجبر والتفويض بنصوص القرآن الكريم، على أساس الفهم العميق للآيات القرآنية، وبشكل ينظر إلى المشتركات بين الآيات وفق فهم ينتمي إلى التحليل المضموني لهذه الآيات، وبذلك ينتهي الإمام (ع) إلى القول حاسماً كل التصورات الخاطئة لصالح الفهم الحقيقي لمسألة الجبر والتفويض، وأن لا جبر ولا تفويض هناك، بل أمر بين أمرين أو منزلة بين منزلتين وفي هذا الأمر يقول الإمام الهادي (ع) ليقطع الطريق على المجبّرة والمفوّضة :

(لكن نقول: إن الله جل وعز خلق الخلق بقدرته وملّكهم استطاعة تعبّدهم بها، فأمرهم ونهاهم بما أراد فقبل منهم اتباع أمره ورضي بذلك لهم، ونهاهم عن معصيته وذم من عصاه وعاقبه عليها ولله الخيرة في الأمر والنهي، يختار ما يريد ويأمر به وينهى عما يكره ويعاقب عليه بالاستطاعة التي ملّكها عباده لاتباع أمره واجتناب معاصيه؛ لأنه ظاهر العدل والنصفة والحكمة البالغة، بالغ الحجة بالإعذار والإنذار وإليه الصفوة يصطفي من عباده من يشاء ليبلغ رسالته واحتجاجه على عباده) تحف العقول ٣٤٣.

وبهذا يحسم الإمام (ع) بشكل تفصيلي بناء على النظرية التي صرح بها جده الإمام جعفر الصادق (ع)، الأمر الذي اضطربت فيه الأفكار لدى الفلاسفة والمتفلسفين والمتكلمين من المسلمين وغيرهم، بناء على فهم حقيقي لمجمل آيات القرآن الكريم ووفق رؤية تفصيلية تحفر في أعماق النص وتنسج أفكارها بناء على هذا الحفر الذي يتخذ من المعرفة سلاحاً له، وليس الفهم المرتبط بالشكل والوقوف عند الظواهر أو التمسك بالرأي الشخصي دون تمحيص أو فهم عميق لمجريات الوجود.

نتائج البحث

كشف البحث عن نظرية مهمة بنيت على النظرية الكلامية التي طالما رويت عن أئمة أهل البيت (ع) وهي نظرية الجبر والتفويض، ألا وهي نظرية الاستطاعة التي تمثل عند الإمام علي الهادي (ع) اللب الذي قامت عليه نظرية الأئمة في الجبر والتفويض، أي أمر بين أمرين أو منزلة بين منزلتين، وكشف البحث عن تلك التطبيقات التي ذكرها الإمام الهادي (ع) في نظرية الاستطاعة، التي من وجهة نظر البحث الدقيق هي عنصر الاحتجاج الحقيقي الذي دافع به الإمام الهادي (ع) عن وجهة نظره التحليلية التي بين من خلالها أن الاستطاعة التي ملّكها الله تبارك وتعالى عباده هي الأساس في عملية الثواب والعقاب، وانتهى إلى أن ذلك يمثل قراءة صادقة وعميقة للمفهوم القرآني بآياته الكريمة الواردة في هذا الباب.

كما كشف البحث عن أن النص القرآني تحدث عن مفهوم الاستطاعة من حيث العلاقة الرابطة بين هذا المفهوم وبين مفاهيم الطاعة والقدرة ذات العلاقة وقد تناول الإمام الهادي (ع) بعض الآيات القرآنية بطريقة حجاجية لبيان مقدار تعاطيه مع المفهوم القرآني المستند إلى معرفة عميقة بالمعنى الذي يريده القرآن الكريم، بما يساعد على ترسيخ القناعة بإمكانيات أهل البيت (عليهم السلام) العلمية التي تكشف عن فهم علمي راسخ بمجريات الكون وتجلياته.

الهوامش

١. يراجع في ذلك: بحوث في الملل والنحل، دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية بأجزائه الكاملة.

٢. تحف العقول ٣٣٧، وفي ذلك نظر ؛ إذ أن الحديث في حال صحة نسبته، فإنه يحتاج إلى أن نحمله على أنه يعني : **أولاً**، أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) عنى بــ(أمتي)

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

صحابته الذين يمتثلون أوامره وليس الذين يتمردون على أمره فهؤلاء ليسوا من أمته، ولو كان هؤلاء الصحابة شخصاً واحداً أو كانوا جيوشاً من البشر، ولعل تخلي المسلمين عن وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في غدير خم بالبيعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) هناك خير دليل على تفرق الأمة، إذن الأمة افترقت على الحق، **ثانياً**، إن نسبة الأمة (أمتي) إلى النبي الأكرم هي نسبة تشريف قطعاً، والذين عصوا أمر النبي (ص) قد خرجوا من معنى اللفظ فهو ينطبق على الذين آمنوا بولاية أمير المؤمنين (ع)، بالإضافة إلى أن لابد للحديث من سبب قيل فيه، فإذا لم يكن هناك سبب فهذا يعني انتفاءه جملة وتفصيلاً ؛ لأننا لا يمكننا قبوله هكذا على علاته، فالأمة منذ لحظة انتقال الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى لحد الآن متفرقة، مما يدعونا إلى القول بأن الحديث النبوي الشريف يمكن حمله على الصحة إذا تمت قراءته قراءة تأملية، كحديثه (صلى الله عليه وآله) (**اختلاف أمتي رحمة**) فالاختلاف في اللغة التزاور والتواصل وعكسه التخالف بمعنى التقاطع والتدابر، وهذا الأمر يحتاج إلى التنبيه إليه من قبل أهل العلم، وعدم الاعتماد على آراء المتطفلين الذين يقلبون الأحاديث بما يتوافق وأهوائهم.

المصادر و المراجع

[١] الزمخشري، جار الله، (١٣٩٩هـ.١٩٧٩م) أساس البلاغة، دار صادر، بيروت ــ لبنان، ١٣٩٩ه.

[٢] العمري، حسن، (١٤٢٤ه ــ ٢٠٠٣م) إسلامية المعرفة عند محمد باقر الصدر، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت ــ لبنان

[٣] السبحاني، الشيخ جعفر، (د.ط.) ابحوث في الملل والنحل، دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية، طهران ــ إيران،

[٤] المجلسي، محمد باقر، (١٣٨٧ه) بحار الأنوار، المكتبة الإسلامية، طهران ــإيران.

[٥] الحراني، الشيخ الثقة الجليل الأقدم أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة،(د.ت.) تحف العقول عن آل الرسول، قدم له وعلق عليه الشيخ حسين الأعلمي، د.ط،

[٦] الجرجاني، الشريف،(د.ت.) التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت ــ لبنان.

[٧] ابن بابويه، الشيخ الصدوق (د.ت) التوحيد، دار المعرفة، بيروت ــ لبنان.

[٨] أبو هلال العسكري،(د.ت.) الفروق اللغوية الفروق اللغوية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

[٩] العمري، عبدالحسين، (٢٠١٣م) محنة المثقف ــ دراسة نصوص عبدالله بن المقفع أسلوبياً، د. دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، دمشق ــ سوريا.

[١٠] الأعرجي، ستار جبر، (٢٠٠٨م)، مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني، د. سلسلة كتب ثقافية يصدرها بيت الحكمة، ط١، بغداد ــ العراق.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]

نظریه استطاعت و کاربردهای آن در گفتار امام هادی (ع)

أ.م.د عبدالحسین العمری[1]

تاریخ دریافت: ۹۲/٤/۱۵ تاریخ پذیرش: ۹۲/۵/٦

پژوهش حاضر موضوع نظریه استطاعت و کاربردهای آن را در گفتار امام هادی (ع) در بر می‌گیرد که از دیدگاه ما پایه و اساس نظریه جبر و اختیار ائمه اسلام علیهم السلام است. در این پژوهش سعی داریم –با تکیه بر معلومات محدود خود– ایده‌های امام (ع) را در این نظریه که تا به حال کسی به آن نپرداخته است شفاف سازی کنیم. از این رو مفهوم استطاعت را در لغت و اصطلاح بیان کرده و مبانی قرآنی آن را به ایجاز و تا جایی که فضای این تحقیق اجازه داده است، بررسی می نمائیم. باشد که فرصتی برای پژوهش در این نظریه و کشف مبانی آن در قرآن و حدیث و احادیث ماثور ائمه اهل بیت علیهم السلام در این باب، فراهم آید.

واژگان کلیدی: نظریه، استطاعت، جبر، اختیار، کاربردها. امام هادی(ع).

۱.دانشگاه ذي قار عراق، دانشکده ادبیات. dr.alumary2012@yahoo.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-10-12]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.2.5.3]